جامعة ابن طفيل

UNIVERSITÉ IBN TOFAÏL

Département
d'Arts et Médias
شعبة الفنون والوسائط

مادة المسرح في المشرق العربي

ذة.تلكماس المنصوري

محاور الدرس:

الفرضية الثانية: المسرح العربي وليد لقاء بالغرب عبر عمليات الاقتباس والاستنبات والترجمة

- ✔ **محاولة التأليف وتجريب أنواع درامية تمتح من التراث وتستلهم عناصره اعتمادا على السند الدرامي الغربي.**

تعقيب قبل البدء

تعقيب بخصوص آراء النقاد في كتاب "فن الشعر" لأرسطو

تجدر بنا من باب الأمانة العلمية أن نعرض لمختلف الآراء التي عرضت لمناقشة مسألة التأصيل في المسرح العربي في المشرق والمغرب، وإن تضاربت واختلفت في منطلقاتها، من ذلك ما ورد عند الكاتب ""أحمد بلخيري في كتابه: "المصطلح المسرحي عند العرب" الصادر عن دار البوكيلي للطباعة ، الطبعة الأولى 1999.ص: 27 وما بعدها.

- لقد اصطف عدد من النقاد والمستشرقين القائلين بأن العرب القدماء لم يفهموا فن الشعر،لأرسطو في منحى واحد معتبرين أن العرب القدماء لم يتأثروا بالمسرح اليوناني عندما ترجم، لأن المترجمين لم يفهموه ولم يحسنوا نقله إلى الثقافة العربية، ولذلك قرؤوه خطأ، واعتبروه شعرا كالمديح والهجاء، وهذا ما سار عليه ابن رشد كذلك.
- لكننا نلفي آراء أخرى تفند هذه المعطيات على أسس منطقية أولاها أن المترجمين وشراح الفكر اليوناني وعلى رأسهم ابن رشد ليسوا من السذاجة بحيث لم يفهموا هذا المعطى من الثقافة اليونانية و هم الذين وعوا الفلسفة والمنطق على دقتهما.
- وهنا ينبري أحمد بلخيري قائلا إننا: " نرفض النتيجة التي توصل إليها الباحثون الذين اتهموا أولئك الفلاسفة العرب القدماء بتهمة الجهل وعدم المعرفة. ذلك أن القيام بقراءة تشريحية داخلية لتلك المتون مكنت من التوصل إلى حقيقة أساسية. هاته الحقيقة مؤداها أن أولئك الشراح العرب القدماء كانوا يدركون تمام الإدراك اختلاف الشعر العربي عن الشعر اليوناني، فضلا عن الاختلاف في المصطلح (...) لأن ابن رشد ليس من السذاجة بحيث لا يميز بين تلك الصناعة وهذا الغرض "
- من خلال هذا الطرح يبدو أن مسألة جهل العرب القدامى بفن المسرح يحتاج إلى المزيد من التدقيق والتمحيص. وهو ما يقوم به الباحث بلخيري في كتابه المشار إليه ولمن أراد التعمق والمزيد من الإيضاح يمكنه الرجوع إلى محتويات الكتاب، خاصة أنه يغوص في المصطلحات النقدية المرتبطة بمجال المسرح، بما فيها تلك الواردة في كتاب فن الشعر لأرسطو.

نشأة المسرح في المشرق العربي رهينة باللقاء مع الغرب

- إذا كانت الآراء السابقة ترى أن المسرح العربي خاصة في بداياته الأولى في المشرق إنما يعود إلى إرهاصات أولى ذات صلة وثيقة بالتراث وبالطقوس البدائية أو الاحتفالية من قبيل : الحكواتي وخيال الظل أو من خلال المقامة وفن السامر وغيرها.
- فإن الرأي المقابل يرى أن نشأة المسرح في الثقافة العربية إنما هي وليدة اللقاء مع الغرب والاحتكاك معه بشكل مباشر خاصة خلال عصر النهضة.
- مما يعني أن أول ظهور للمسرح إنما جاء عبر أحد هذه العوامل الثلاثة: الترجمة/ الاقتباس/ الاستنبات.
- لقد لعبت البعثات الطلابية –إلى جانب الصحافة - دورا كبيرا في تعرف المثقفين العرب على المسرح في فرنسا وانجلترا وهو ما خلق نوعا من الانبهار الذي سرعان ما تحول إلى رغبة جامحة في خلق نموذج عربي مقابل له يواكبه و يسايره ويبحث لنفسه عن موطئ قدم تميزه.

وقفة مع المصطلحات

الاقتباس L'adaptation

- يختلف الاقتباس عن الترجمة، لأنه قد يكون من لغة أجنبية إلى اللغة العربية، أو من اللغة العربية نفسها، دون تقيد إجباري بأسماء شخصيات النص الأصلي، الذي قد لا يكون دراميا، ودون تقيد إجباري أيضا بالمواقف والأحداث، والإرشادات المسرحية إن وجدت. ذلك أن ما يبقى من النص الأصلي إنما هو إطاره العام.
- الاقتباس هو تصرف وتحوير للنص الأصلي، بهدف ملاءمته مع وضع جديد، قد يكون سياسيا أو اجتماعيا...
- من أمثلة ذلك نص طرطوف لموليير الذي اقتبسه جورج أبيض وغير عنوانه إلى : الشيخ متلوف.

(للمزيد من التعمق، يمكن العودة إلى كتاب: معجم المصطلحات المسرحية/ لأحمد بلخيري، ص:108 وما بعدها.)

الاستنبات La transplantation

- مفهوم الاستنبات مفهوم ملتبس لأنه يتداخل مع مفاهيم من قبيل الاقتباس والنقل وهو يعني » نقل النص من تربة معينة إلى تربة أخرى، أي من سياق تاريخي وحضاري واجتماعي له خصوصيات محددة إلى سياق آخر ذي خصوصيات مغايرة. وهو الشيء الذي يفسر ارتكاز مفهوم الاستنبات على نصوص أجنبية في أغلب الأحيان«،(1) ومعنى هذا أن عملية الاستنبات هي محاولة لتدجين النص الأصلي وجعله أكثر ملاءمة لروح وثقافة النص المنقول إليهما، مثلما أنها عملية » تهدف إلى ترهين النص وجعله أقرب إلى روح العصر الذي استنبت فيه وكذا لثقافة مجتمعه. إنها أقرب إلى عملية ترهين التاريخ. فليس هدفها إقصاء النص الأصل بقدر ما تهدف إلى إبراز الاختلافات بين زمن إنتاج النصين معا«(2).

(1) -لحسن قناني : المفاهيم الإجرائية للنقد المسرحي، مرجع سابق، ص:185.

(2) Patrice Pavis : Dictionnaire du théâtre ,p :3.

وقفة مع المصطلحات

La traduction الترجمة

- "الترجمة هي نقل نص درامي من لغة أجنبية إلى اللغة العربية، مع المحافظة الضرورية على أسماء الشخصيات، والمواقف و الأحداث، والزمان والمكان، والإرشادات المسرحية إن وجدت."(أحمد بلخيري/ معجم المصطلحات المسرحية/مرجع سابق،ص:108)

L'improvisationالارتجال

- أداء مسرحي يقوم به الممثل دون اعتماد على نص درامي موجود سلفا. وتعتمد أغلب الفنون الشعبية الفرجوية كالسامر والحلقة على الارتجال، لأن الممثلين يتفقون فقط على الخطوط العامة ثم يعدلون فيها كل بحسب طاقاته الإبداعية في الارتجال والأداء.
- وعليه فإن الارتجال ليس حديث العهد في الأداء الدرامي، بل هو متوغل في القدم ومرتبط بالوجود الاجتماعي في الزمن حتى اعتبر الارتجال أصلا للملاحم الشعبية والأشكال الدراماتيكية، ومصدرا للكوميديا. (المرجع نفسه / ص:108)

الريادة والبدايات في المسرح العربي

- يعتبر مارون النقاش وأبو خليل القباني ويعقوب صنوع رواد المسرح العربي بلا منازع، ولكل منهم أتباع ساروا على نهجهم وحاولوا اجتراح مفهومهم الخاص للمسرح في نسخته العربية. كما أنهم واجهوا صعوبات جمة مرتبطة بجدة التجربة وبطبيعة المتلقي العربي الذي يختلف قطعا عن نظيره الغربي.
- إلى جانب هؤلاء هناك محاولات كثيرة عايشت عسر الولادة وجدة التجربة الدرامية في المشرق العربي من قبيل جورج أبيض وألفريد فرج وغيرهم ممن سنتطرق إليهم في الحصص المقبلة.
- ونشير قبل التطرق إلى أهم خصائص المسرح عند هؤلاء، إلى أن تسمية المسرح في بداياته عند العرب قد اتخذت عدة مصطلحات من قبيل: الرواية/ التياترو/ المرسح... وغيرها وهي تعني كلها وصف هذا الوافد الجديد إلى الثقافة العربية.
- ويمكن هنا العودة إلى كتاب (المسرحية في الأدب العربي الحديث/ لخليل موسى، منشورات اتحاد كتاب العرب، طبعة 1997، للمزيد من التدقيق في أهم المسميات التي أطلقت على هذا الفن الجديد على الثقافة العربية خلال عصر النهضة.)

مارون النقاش
(1855-1817)

تكمن أهميته في كونه ذا مشروع إبداعي" هو: تأسيس جنس من الأجناس الأدبية والفنية الأساسية التي ظلت غائبة من الأدب العربي على امتداد تاريخه".

مارون النقاش ومحنة المثقف العربي النهضوي

- يعتبر مارون النقاش أحد الرواد المؤسسين لخطاب النهضة العربية إلى جانب : سليم البستاني - خليل اليازجي وأديب إسحاق .
- كان يحمل هما وجدانيا جمعيا يتلخص في رغبته في تأصيل مسرح عربي، وهذا مشروع تربوي جماعي يحتاج إلى تكاثف كبير للجهود،كما أنه مشروع سياسي وجد نفسه في مواجهة مباشرة مع السلطة وإيديولجيتها. ومعنى هذا أن مارون النقاش قد دخل ومنذ البداية في نقاش مزدوج مع: المجتمع/ السلطة.

خطبة مارون النقاش حول المسرح

- كان يتقن علوم العربية قراءة وكتابة حيث تعلم النحو والصرف وعلم المنطق والعروض والبلاغة والبديع، وكان ينظم الشعر في حداثة سنه، ولغته متينة السبك والتركيب، تدل عليها خطبته الشهيرة(انظر نص الخطبة المتضمن في الكتاب الملحق PDF) والتي ألقاها في حضرة نخبة من المثقفين في أول عرض لمسرحيته.
- كان تاجرا ومتقنا للغات عدة كالإيطالية والفرنسية والتركية، وكان ولوعا بالسفر، وهذا سبب شغفه بالمسرح إذ تعرف عليه في سفراته إلى إيطاليا وفرنسا.
- ولذلك يعتبر الشام مهد انطلاق المسرح العربي ثم تلته مصر بعد ذلك والفضل يعود لمارون النقاش باعتباره أحد رواده ، إن لم نقل أولهم،في المشرق العربي.
- تعتبر خطبته أول بيان في المسرح العربي، وقد بيَن فيها غاياته من هذا الفن الجديد، كما ضمنها رسالة المسرح في المجتمعات. وتدل هذه الخطبة على وعيه العميق لوظيفة المسرح، ولأنواعه، كما عمل على إشراك الجمهور في العمل الدرامي، لأنه يؤمن بأن دوره لا ينفصل عن دور الممثلين والعمل الدرامي.
- كما أنه انتبه إلى مواضعات المسرح في العالم الأوروبي والتي تختلف قطعا عن بنية المجتمعات العربية فحاول تكييفها بما يلائم شروط تقبلها في بنية شعرية كلاسيكية.

مارون النقاش وفكرة إنشاء مسرح خاص

من أول الأشياء التي فكر فيها مارون النقاش، أن ينشئ مسرحا خاصا به وبالطبع تكوين فرقة مسرحية لتأدية العروض والمسرحيات التي سيعرف بها المجتمعات العربية على هذا الوافد الجديد.

ولذلك حصل على ترخيص/ فرمان سلطاني يخول له إنشاء مسرح خاص إلى جانب منزله في بيروت، يحتضن فرقته الجديدة والتي ضمت نقولا النقاش وسعد البستاني.

قدم بمعية فرقته مسرحية البخيل سنة 1848 التي لاقت استحسانا كبيرا. وهي مستوحاة من مسرحية موليير، لكنها ليست ترجمة ولا اقتباسا.

قال عنها محمد يوسف نجم:"زعم الكثير من الباحثين أن مسرحية البخيل لمارون النقاش، هي اقتباس أو ترجمة للمسرحية المعروفة بهذا الاسم، والتي كتبها المسرحي العظيم موليير، والحقيقة التي لا يرقى إليها شك أن هذه المسرحية مؤلفة من ألفها إلى يائها، بعد قراءته للمسرحية المولييرية، واستيعابه لبعض شخصياتها، ولمقومات الإضحاك فيها. إلا أنه لم يقتبس شيئا من المادة/ الموضوع، أوالتنسيق الفني بنوعيه الخارجي والداخلي."(يرجى النظر في كتاب : محمد يوسف نجم / المسرحية في الأدب العربي الحديث: 1847-1914 ، الطبعة الثانية بيروت 1967.)

ارتبط اسم مارون النقاش بالنوع الغنائي/الكوميدي

- يمكننا أن نستشف بعض العناصر الأساسية من خطبة مارون النقاش حول المسرح، ولعل أهمها:
- أن المسرح وسيلة تعليمية وتثقيفية وتهذيبية، تعلم اللغات والفنون والموسيقى والمقامات اللحنية، خاصة أن أغلب مسرحياته تستعين بالغناء والأناشيد والمقامات اللحنية.
- أن المسرح وسيلة للتسلية وللمنفعة، يحضر فيها التطهير والترفيه، والمتلقي هو الذي يقرر أي الأشياء/ الأهداف يريد.
- وتعتبر مسرحية "أبو الحسن المغفل أو هارون الرشيد" 1849، أشهر الأعمال التي قدمها، وهي مسرحية كوميدية، حدد نوعها في البداية بقوله/ هي هزلية مضحكة ملحنة في ثلاثة فصول.
- هاهنا يظهر لنا التوجه العام لدى مارون النقاش وأغلب الذين جاءوا بعده. إنه توجه المسرح الغنائي والهزلي ولذلك أسبابه ومسوغاته التي سنقف عندها في حينها.
- الجمهور العربي لم يكن قادرا أو مستعدا بعد لتلقي أعمال تراجيدية ومأساوية، فالنسق العربي مغاير تماما للنسق الغربي الأسطوري الذي له تجربة طويلة مع الأعمال التراجيدية ولذلك ينبغي له أن يطرق باب التأسيس من أقرب وأيسر أبوابه عند المتلقي العربي، وهذا ما مكنه من اقتحام سطوة الشعر التي لازمته لقرون طويلة.

دور مارون النقاش في تأسيس المسرح العربي

- وعموما، يبدو أن مارون النقاش "قد نجح في نقل الظاهرة المسرحية من المجتمع الأروبي إلى المجتمع العربي، وذلك نظرا لعدة عوامل أهمها:

✔ أنه كان موهوبا، فهو شاعر وموسيقي ومؤلف ومخرج وممثل وناقد، وهو ما أهله ليقوم بكثير من الأعمال في المسرحية الواحدة.

✔ كان يمتلك العدة الثقافية التي يتطلبها أي إبداع، وهي معرفة اللغة /اللغات، وسعة الاطلاع، والسياحة والسفر والتجول في البلدان/ والثقافات المختلفة.

✔ المسرح يحتاج إلى دعم مالي كبير، وهو كان تاجرا ناجحا، فلم يكن بحاجة لأن يعيش من مسرحياته، بل كان ينفق بسخاء من ماله الخاص، وكان همه هو ترسيخ هذا الفن الوافد واستنباته في تربة عربية جديدة.

✔ البداية التي انطلق منها تؤسس لمسار صحيح، فقد عاد إلى موليير، وهو مؤسس في مجاله، ثم إنه لم يترجم ولم يقتبس، بل استلهم روح النصوص المولييرية، وبحث لنفسه عن موطئ قدم مستعينا بتراثه العربي ومنطلقا من موضوعات إنسانية مشتركة وخالدة كالبخل والنفاق والعته و الطمع.

✔ كان ذا دراية بالأنواع الدرامية ومع ذلك اختار اللون الغنائي الهزلي، لأنه الأقرب إلى نفسية المتلقي العربي، وهو الذي لاقى استحسانه، وهو بذلك خبير بنفسية الجمهور العربي، وواع بحساسية الموقف ودقته وجدته. كان يعلم هدفه ومشروعه، ولذلك فضل أن ينتج نصوصا هزلية ويجد لها مكانا مناسبا من خلال الاستعانة بالتراث الشعبي العربي، وكان يركز على كشف العيوب الاجتماعية، ولم يكن هدفه سياسيا ولم يسع إلى خلق صراعات سياسية أو تأجيج النفس الثوري لدى الشعب، وبذلك ضمن دعم السلطة ومؤسسة الدولة واحتضانها لمشروعه."(من كتاب خليل الموسى/ بتصرف)

ورغم أن تجربة مارون النقاش لم تكن طويلة جدا إلا أنها كانت كافية لخلق حراك فني ونقدي حول وافد جديد هو المسرح. ودفع بحسه المتقد إلى خلق قلق فكري حول إمكانية نشأة مسرح في الثقافة العربية من عدمه، مع اقتراحه للبديل أمام أنظار الجميع من جمهور ونقاد وممثلين. وضرب لهم المثال بالتضحية بماله ووقته وجهده، مع حضور واع للحس النقدي الذي يصحح الأخطاء، ويطور الذات فكان يتطور من عمل إلى آخر.

لقاؤنا يتجدد في الدرس الموالي.